

الممارسة الطبية الصوفية في المغرب الأقصى من خلال كتاب التشوف لابن الزيات

الباحث: خضور عبدالرزاق جامعة البليدة 02 المشرف د: عبدالقادر بوعقادة

مخبر الدراسات التاريخية المتوسطية عبر العصور _ جامعة يحيى فارس بالمدينة _

الملخص:

نتطرق في هذه الورقة البحثية إلى الوظيفة الاجتماعية لأولياء المغرب الأقصى والتي تمثلت بالدرجة الأولى في شفاء المرضى وإبراء العلل التي تفتشت في أوساط مجتمع المغرب الأقصى، وذلك من خلال كتاب التشوف إلى رجال التصوف لابن الزيات التادلي، بحيث تضمن هذا المقال جملة من النقاط كان أولها البحث في الأسباب والعوامل التي وجهت الساكنة صوب العلاج الكرامي، لنعرج بعدها على أهم الأمراض التي عالجها هؤلاء الأولياء ضمن نسق تساؤولي عن أهم الوسائل والأساليب المستعملة في التداوي من داء المرض في بلاد المغرب الأقصى.

الكلمات المفتاحية: الطب، الأمراض، الأولياء، أساليب العلاج، المغرب الأقصى، كتاب التشوف، ابن الزيات.

Abstract:

In this research paper, we address the social function of the guardians of the Far Maghreb, which was represented primarily in the healing of the sick and the healing of the ailments that spread in the circles of the Far Maghreb society, through the book of Chouf to the men of Sufism by Ibn Al-Zayat Al-Tadly, so this article included a number of points, the first of which was the research In the causes and factors that have directed the population towards karmic treatment, let us review afterwards the most important diseases that these parents dealt with within a question format about the most important means and methods used in the treatment of disease in the Far Maghreb.

Keywords: Medicine, diseases, saints, methods of treatment, Al-Aqsa Maghrib, Chouf Book, Ibn Zayat.

مقدمة:

أفرزت مدرسة الحوليات في الآونة الأخيرة بما يسمى بالحقل الاجتماعي، هذا الحقل الذي يضم في طياته العديد من المواضيع لعل أبرزها وأهمها موضوع الممارسة الطبية الصوفية في المغرب الأقصى، إذ يعتبر هذا الأخير من المواضيع المهمشة والمغيبة في الكتابة التاريخية، فكل ماورد بصدد هذا الموضوع لا يتجاوز سوى إشارات شاحبة وشوارد محتشمة تفرض على الباحث الغوص في عمق المصادر لجعل هذا النوع من المعرفة الطبية في منطقة الضوء¹.

فلقد تصدر لممارسة هذا النوع من المعرفة الطبية التي تسمى بالطب الروحاني طبقة الأولياء، هذه الطبقة التي لم تكن تعيش بمنأى عما كان يصيب ساكنة المغرب الأقصى من أمراض، لاسيما وأنها كانت تشكل شريحة اجتماعية رئيسية لا سبيل للاستغناء عنها، فهذا الوضع الصحي المتأزم شكل أحد الأسباب الرئيسة في استقطاب لفئة الأولياء خاصة وأنها ادعت أن لها من الآليات والميكانيزمات ما يمكنها من شفاء الأمراض وإبراء العلل، هذا الأمر أدى بالساكنة إلى الاعتقاد المطلق والتشبث بكرامات الأولياء وقدرتهم الشفائية.

ولمعرفة مدى فاعلية العلاج الكرامي الذي تبنته ساكنة المغرب الأقصى للخروج من هذا الوضع الصحي المتأزم، تطلب منا الأمر الغوص في ثنايا الكتب المنقوية باعتبارها أحد الروافد الرئيسية التي ترجمت لسير ومناقب الأولياء وأرخت لمثل هكذا مواضيع، وقد وقف اختيارنا على كتاب التشوف إلى رجال التصوف لابن الزيات التادلي كأتمودج للبحث في هذا الموضوع على اعتبار أنه من المؤلفات الأولى في ميدان الكرامات والمناقب، كما أنه يحتوي على العديد من المعلومات والإشارات المتعلقة بموضوع بحثنا، لذلك سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية رصد للأسباب والعوامل التي وجهت الساكنة صوب العلاج الكرامي، لنعرج بعدها على مجمل الأمراض التي عالجها الأولياء ضمن نسق تساؤولي عن الآليات والميكانيزمات المستعملة في التداوي من الأمراض.

1/ التوجه العلاجي الولائي لدى ساكنة المغرب الأقصى - بحث في الأسباب والعوامل -

عرف مجتمع المغرب الأقصى كغيره من المجتمعات الإسلامية في العصر الوسيط مجموعة من الأمراض كانت متفاوتة الخطورة فيما بينها، فلا ريب أن هذه الأمراض كانت تؤرق معيشتهم نظير ما خلفته من عاهات عضوية

* المؤلف المرسل: عبدالرزاق خضور، طالب دكتوراه، ea.khoudour@univ-blida2.dz، جامعة لونيبي علي البلدة 02

¹ - إبراهيم القادري بوتشيش، العلاج الطبيعي والروحاني بالمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين (منتصف القرن الخامس هـ -منتصف القرن السادس هـ)، مقال منشور ضمن أعمال مؤتمر الطب والصيدلة عند العرب، إصدار مركز التراث القومي والمخطوطات، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1998م، ص 206.

ونفسية¹، هذا الوضع الصحي المتأزم الذي كانت تمر به الساكنة لا سيما الشرائح الضعيفة كانت له تأثيرات عميقة مما دفع بها إلى البحث عن البدائل التي تخلصها من قهر هذا الواقع، فكان الملجأ الوحيد التوجه نحو العلاج الكرامي إيماناً واعتقاداً بنجاعته، خاصة وأن فئة الأولياء التي كانت تمارس مهنة التطبيب قد ادعت لها من الوسائل والأساليب التي تمكنها من شفاء هذه الأمراض أو التقليل من حدتها.

وبما أن موضوع بحثنا يرتكز بالأساس على كتاب "التشوف لابن الزيات"، فمن خلال عمليتي التتبع والاستقراء التي قمنا بها وقفنا على جملة من العوامل والأسباب كانت وراء استعانة الساكنة بهذه الفئة التي استجابت للأصوات التي استغاثت بها، فشكلت بذلك عنصراً فعالاً في المجتمع لا سبيل للاستغناء عنه في جميع الأصعدة خاصة فيما يتعلق بالجانب الصحي الذي تمكنت فيه من إعطاء طرق للتداوي والتطبيب كانت أكثر فاعلية في أوساط المجتمع.

ولعل من بين العوامل والروافد الأساسية التي وجهت الساكنة صوب الطقوس الاستشفائية التي امتنعتها الأولياء في تسكين الألم، عجز الطب العلمي عن تطبيب العديد من الأمراض، وهذا ما وقفنا عليه في كتاب التشوف، فكان الولي الملاذ الأخير في ظل تفاقم وتأزم الوضع الصحي ببلاد المغرب الأقصى، لاسيما وأن الصناعة الطبية في تلك الفترة قد عرفت ضياعاً لأنه يتعرضها الغث والسمين²، وهذا ما نلمسه في قول ابن الزيات³: "يا أبا لقمان هذا الولد يعتربه الصرع. فقال لها لست بطبيب فاحمله إلى الأطباء. فقلت له أنا: أما الأطباء فقد عجزوا ولم يبق إلا طب الله تعالى"، فمن خلال هذا النص أدركنا حقيقة محدودية الطب العلمي، هذا الأخير ساهم في خلق المجال الخصب لظهور الطب الصوفي الذي جاء لملازمة هذه الحقيقة، وهذا ما دفع بأحد الباحثين⁴ إلى القول أن: "دور الولي يبدأ عندما ينتهي دور الطبيب".

إلى جانب ذلك التكاليف الطبية الباهضة التي كان يدفعها المريض سواء للطبيب أو لشراء الأدوية والتي أثبت عدم فاعليتها ونجاعتها، بخلاف الطب الصوفي الذي كان لا يتقاضى الأجر في تطيبه للمريض، فكان يستعمل أساليب مختلفة تنوعت بين المسح والبصق والدعاء، كل هذا وفر على الفئات الهشة تكاليف الطبيب و الدواء التي لا يطيقون

1 - عبدالهادي البياض، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب و الأندلس (ق6-8هـ/12-14م)، ط1، دار الطليعة، بيروت، 2008م، ص 299.

2 - أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة ببجاية، تح: عادل نويهيض، ط2، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1979م، ص 76.

3 - التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تح: أحمد التوفيق، ط2، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1997م، ص 233.

4 - عبد اللطيف الشاذلي، التصوف والمجتمع نماذج من القرن العاشر هجري، ط1، مطبعة سلا، سلا، 1989م، ص 116.

دفعها¹، ومن الإشارات الدالة على صحة قولنا، ما نقله لنا ابن الزيات² حول أخت علي بن عبدالكريم التي دفع من أجل مداواتها من لمعة البرص مئة دينار إلى ابن أفلاطون، دون أن ينجح دواءه في شفائها، فكان الملاذ الأخير أبو تميم عبد الواحد الأسود الذي عالجها بريقه على موضع البرص، فما بقي منه شيئاً.

وبما أن العوامل والأسباب قد تعددت وراء لجوء الساكنة إلى الطب الصوفي، فلا غرابة أن نجد أن الدعاء هو الآخر كانت له مساهمة في ذلك الذي رافقته " سرعة الاستجابة"³، فقد استعان الأولياء في شفاء مرضاهم بأسلوب الدعاء الذي أثبت فعاليته في إبراء المرضى، على اعتبار أن دعوة الأولياء كانت مستجابة من الله لتقواهم وورعهم⁴، ولا تنقصنا من القرائن الدالة لإثبات هذا الطرح ومن ذلك أن الولي ابن تاحميسست (ت 608هـ/1211م) استعان بألية الدعاء في شفائه لأحد المرضى، فكان يقول: " سألت رب العرش العظيم أن يشفيك، فما أكملها في المرة الثالثة حتى برء من مرضه"⁵.

كما أمدنا المصنف المنقبي بأسلوب آخر استعمله الولي في تسكين الألم، غير أنه كان في نفس الوقت شكل أحد الأسباب الرئيسية في الإصابة بالمرض، ونلاحظ أن هذا النوع من الأساليب كان يتم تفعيله أثناء الاعتداء على حرمة الولي، بحيث يتم تفعيل ذلك ضد كل شخص أساء الأدب معهم بالتلفظ بأقوال تسيء إليهم، مثل التلفظ بكلمة - جاهل - مثلما حدث مع مؤذن ابن يعزى الذي نعته بكلمة - جاهل -، فأصابه وجع من حينها منعه من القدرة على الكلام، فكان علاجه بيد شيخه الذي مسح على حلقه ليتكلم بعدها⁶، وفي نفس السياق لاحظنا أن كل شخص سولت له نفسه الاعتداء على ممتلكات الولي كان جزاءه الإصابة بالمرض الذي يستمر مفعوله إلى حين الذهاب إلى الولي الذي يستعمل آليته لتسكين الوجع، ففي هذا الصدد نجد أن أحد أطراف بلاد دكالة دخل جنة أبي حفص فأخذ منها، فأصابه وجع، فما كان عليه إلا الاستغاثة بالولي أبي حفص (ت 595هـ/1198م) الذي عالجها

¹ - الطاهر بونابي، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7 الهجريين/12 و13 الميلاديين (نشأته - تيارته - دوره الاجتماعي والثقافي والفكري والسياسي)، دار الهدى، عين مليلة، 2004م، ص 181.

² - المصدر السابق، ص 269.

³ - البشير غانية، والمجتمع بالمغرب الإسلامي في عصري المرابطين والموحدين (635-479هـ/1086-1238م)، أطروحة دكتوراه، جامعة أبو القاسم سعدالله، الجزائر، 2015-2016م، ص 241.

⁴ - سمية مزدور، الأزمة والولاية الصوفية في المغرب الأوسط (مابين القرنين 6-10هـ/12-16م)، مقال منشور ضمن كتاب جماعي مغرب أوسطيات دراسات في تاريخ وحضارة الجزائر في العصر الإسلامي في العصر الوسيط، إشراف: علاوة عمارة، ط1، منشورات مكتبة اقرأ، الجزائر، 2013م، ص 168.

⁵ - ابن الزيات، المصدر السابق، ص 391.

⁶ - ابن الزيات، المصدر السابق، ص 215.

بألية المسح على حلقة، فزال عنه ما أصابه¹، فمن خلال هذين النموذجين لاحظنا أن جل المصنفات المنقبية قد عمدت إلى استعمال أسلوب التخويف والترهيب لكل من سولت له نفسه المساس بحزمة الولي وممتلكاته وإنكار صحة ولايته.

وكنتيجة حتمية لهذا الوضع، الذي اختلفت فيه الأسباب والروافد الموجهة للعلاج الكرامي، غير أنها ساهمت بشكل كبير في تهيئة البيئة الخصبة لظهور الطب الصوفي في بلاد المغرب الأقصى.

2/ الأمراض التي عاجلها أولياء المغرب الأقصى

من خلال عملية القراءة التي قمنا بها لكتاب التشوف لابن الزيات لاحظنا أن هذا المصنف المنقبي يحتوي في ثناياه على العديد من الإشارات والنصوص المتعلقة بالأمراض، هذه الأخيرة مست مختلف الفئات البشرية بما فيها فئة الأولياء التي امتهنت مهنة الطب الصوفي في المغرب الأقصى، وبما أن موضوع البحث كان منطلقه بالأساس معرفة مدى فاعلية العلاج الروحاني، لذلك سنقتصر في بحثنا هذا على عينة الأمراض التي عاجلتها هذه الفئة دون التطرق للأمراض الأخرى التي لم تتم معالجتها لاسيما فيما يتعلق بالأمراض التي أصابت الأولياء، والتي غالبا ما كان يتم التستر عليها، فلا شك أن الإحصاء العددي² لهذه الأمراض سيمكننا من معرفة نوعية الأمراض التي عاجلها وعدد الحالات المعالجة، بحيث يمكن توضيح ذلك من خلال الجدول والتمثيل البياني التاليين:

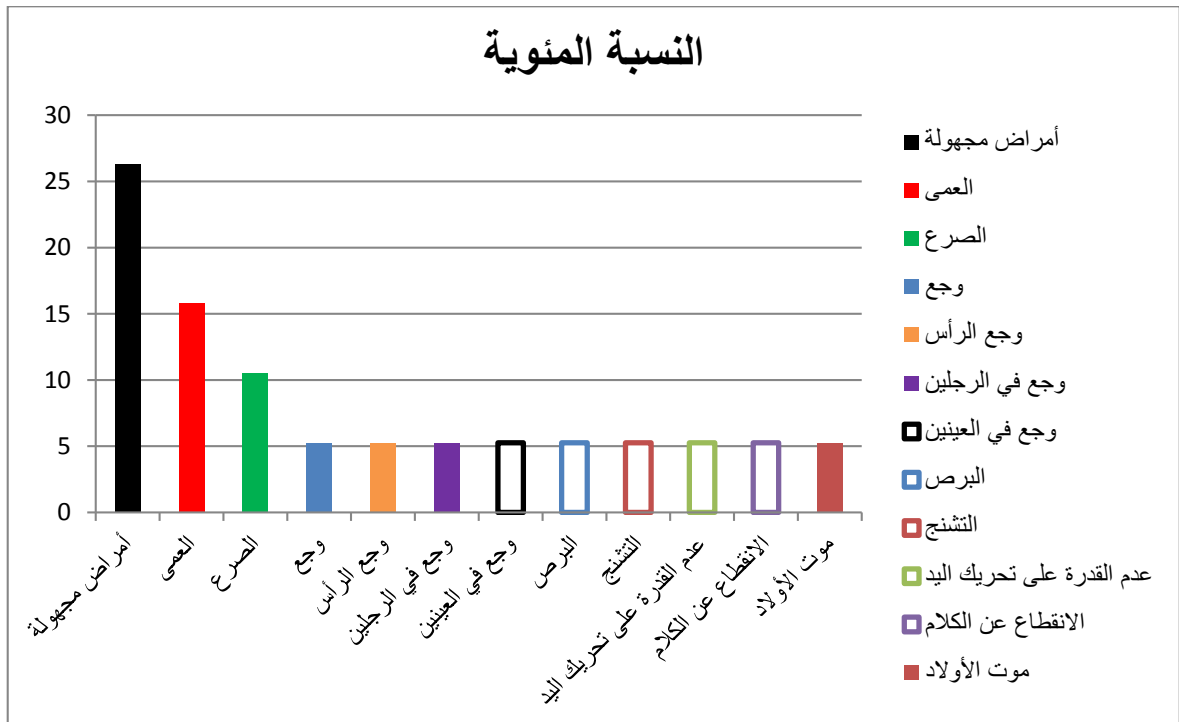
الشكل (01): إحصاء للأمراض التي عاجلها الأولياء في بلاد المغرب الأقصى من خلال كتاب التشوف				
الرقم	أنواع الأمراض	العدد	النسبة المئوية	
1	أمراض مجهولة	5	26.31%	
2	العمى	3	15.78%	
3	الصرع	2	10.52%	
4	وجع	1	5.26%	
5	وجع الرأس	1	5.26%	

¹ - المصدر نفسه، ص 309.

² - ينظر: الملحق 01

6	وجع في الرجلين	1	5.26%
7	وجع في العينين	1	5.26%
8	البرص	1	5.26%
9	التشنج	1	5.26%
10	عدم القدرة على تحريك اليد	1	5.26%
11	الانقطاع عن الكلام	1	5.26%
12	موت الأولاد	1	5.26%
المجموع		19	100%

الشكل 02: أعمدة بيانية تمثل إحصاء للأمراض التي عالجها الأولياء في بلاد المغرب الأقصى من خلال كتاب التشوف



التعليق والتحليل:

نقف من خلال الجدول الإحصائي والتمثيل البياني الذي بين أيدينا على جملة من المعطيات نوجزها فيما يلي:

* قدرت عدد الحالات المرضية التي تمت معالجتها بمجموع 19 حالة مرضية جمعت بين 15 رجل و4 نساء.

* الملاحظ أن هناك تنوع في الأمراض التي تم تطبيقها من طرف الأولياء، بدليل مداواة 12 صنف مرضي بحيث يمكن تقسيمها على ثلاثة أقسام، القسم الأول يتضمن الحالات الأكثر معالجة، بحيث احتلت الأمراض المجهولة المرتبة الأولى بمجموع 5 حالات مرضية أي بما يعادل نسبة 26.31%، هذا التغيب والتهميش في ذكر اسم المرض يدفعنا إلى القول بأن هذه الإشارات قد وردت ربما بطريقة عفوية في المصنفات المنقبية، بدليل تقديم ترجمة مطولة لسيرة ومناقب الولي، وإهمال ذكر نوع المرض المعالج والاكتفاء بذكر اسم الولي الطبيب مع الإشارة إلى جنس المريض، ولا تعوزنا من القرائن ما يؤكد على صحة كلامنا ما احتواه هذا النص المنقبي من إشارات وعبارات دالة على ذلك، وهذا ما يتضح من خلال قوله: "وقد أتته صبية (المقصود أبي يعزى) بما علة لتستشفى بمسه فأدخل يده إلى جسدها ليمسح عليها¹".

* مداواة مرض العمى والصرع: لقد احتل هذا الصنف المرضي المرتبة الثانية من حيث عدد الحالات المعالجة، فقد كان حضورها متوسط بمجموع 3 حالات من مرض العمى وحالتين من مرض الصرع أي بما يساوي 15.78% و 10.52% على التوالي، أما فيما يتعلق بمرض العمى الذي كان مرتبط بسن الشيخوخة مثلما أشار إليه ابن زهر² في قوله: "وإنما يعرض ذلك للشيخوخ كثيرا بسبب ضعف حرارتهم"، فقد بقي الولي أبو علي ابن عبدالله البردعي الأسود (ت 586هـ/ 1190م) مدة عامين لا يبصر شيئا، هذا لا يمنع أن يشكل النظر إلى عين الشمس وإلى الأنوار الساطعة³ أو الاختلال في النظام الغذائي⁴، أحد العوامل الأساسية في انتشار مرض العمى، غير أن مرض العمى الذي أصاب أبو مدين شعيب كان نتيجة ذهابه إلى المكان الذي كان يقيم فيه أبا يعزى وقيامه بمرغ وجه هناك، فلم يعد يبصر شيئا⁵، في حين أن مرض الصرع الذي أصيب به عبدالله بن عيسى في صغر سنه⁶، هذا المرض كان ينجم عن مشاركة بعض

1 - ابن الزيات، المصدر السابق، ص 220.

2 - التيسير في المداواة والتدبير، تح: محمد بن عبدالله الروداني، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، مطبعة فضالة، المحمدية، (د.ط)، 1991م، ص 71.

3 - المصدر نفسه، ص 67.

4 - نور الدين زرهوني، الطب والخدمات الطبية في الأندلس خلال القرن السادس الهجري - الثاني عشر ميلادي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د.ط)، 2006م، ص 113.

5 - ابن الزيات، المصدر السابق، ص 320، 321.

6 - المصدر نفسه، ص 233.

الأعضاء المؤوفة للرأس، أي عضو كان بما يصعد منه من أبحرة الخلط السوء إلى الرأس، مما يغير مزاج الروح النفساني، فيعرض التشنج الذي يؤدي إلى حدوث الصرع¹.

* احتلت كل من الصنوف المرضية التالية: (وجع، وجع الرأس، وجع في الرجلين، وجع في العينين، التشنج، البرص، عدم القدرة على تحريك اليد، الانقطاع عن الكلام، موت الأولاد) المرتبة الأخيرة بمجموع حالة مرضية واحدة لكن صنف أي بما يعادل أو يساوي 5.26%، وتجدد الإشارة إلى أن هناك بعض الأمراض قد تم الخوض في مسبباتها فيما سبق على غرار مرض عدم القدرة على تحريك اليد والانقطاع عن الكلام والإصابة بالوجع.

نحن لا نغالي إذا قلنا أن الأولياء قد تمكنوا من شفاء بعض الأمراض وليس كلها، والتي عجز الأطباء عن تطبيقها مثل داء البرص، غير أنه لفت انتبهنا خلو المصنف المنقبي من معالجة الأولياء لداء الوباء لا سيما وأن بلاد المغرب الأقصى عرفت وباءين عظيمين الأول كان سنة 571هـ والثاني في سنة في 635هـ/1237م.

3/ أساليب الولي في العلاج - رصد للآليات والطرق-

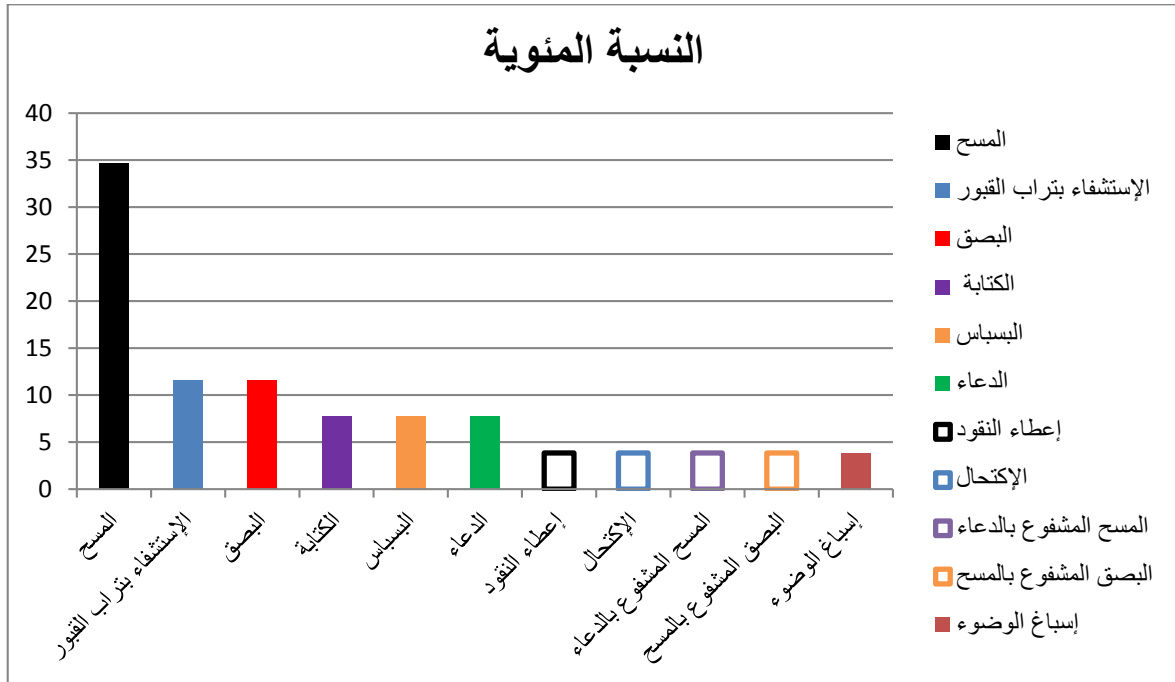
مما لاشك فيه أن الأمراض التي تفشت في أوساط مجتمع المغرب الأقصى كان لها تأثيرات عميقة وأكثر خطورة لما ينجر عليها من أزمة ديمغرافية، هذه المشاكل الصحية شكلت البيئة الخصبة لظهور الفعل الخوارقي المتمثل في العلاجات الكرامية الذي كانت بداياته الأولى في القرن السادس هجري، فلا مرء أن هذه العلاجات قد استهوت الفئات الضعيفة، وذلك راجع لعدة عوامل قد سبق وأشرنا إليها، لاسيما وأن فئة الأولياء أبدت كل الاستعداد لتطبيق المرضى وشفاء الحالات الميؤوس منها، فهذا النوع من الممارسة الطبية مكن من مداواة المرضى باستخدام آليات بسيطة أثبتت نجاعتها وفعاليتها في علاج مختلف الأمراض التي عجز الأطباء عن مداواتها، وعليه قد قمنا بعملية المسح الإحصائي للمصنف المنقبي الموسوم: "كتاب التشوف إلى رجال التصوف"، لتبيان الوسائل والأساليب المستعملة في إبراء المرضى وتطبيق أصحاب العاهات المستعصية، وهذا ما يوضحه كل من الجدول والتمثيل البياني التالي:

الشكل (03): إحصاء لأنواع الطقوس الاستشفائية المستعملة في علاج المرضى من خلال كتاب التشوف			
الرقم	أنواع المعالجة الطبية الصوفية	العدد	النسبة المئوية
1	المسح	9	34.61%
2	الاستشفاء بتراب القبور	3	11.53%

¹ - ابن زهر، المصدر السابق، ص 121.

3	البصق	3	11.53%
4	الكتابة	2	7.69%
5	اليسباس	2	7.69%
6	الدعاء	2	7.69%
7	إعطاء النقود	1	3.84%
8	الاكتحال	1	3.84%
9	المسح المشفوع بالدعاء	1	3.84%
10	المسح المشفوع بالبصق	1	3.84%
11	إسباغ الوضوء	1	3.84%
	المجموع	26	100%

الشكل (04): أعمدة بيانية تمثل الطقوس الاستشفائية المستعملة في تطبيب المرضى في بلاد المغرب الأقصى من خلال كتاب التشوف



التعليق و التحليل:

نلاحظ من خلال المعطيات السابقة أن هناك تعدد وتنوع في أنماط التطبيب الصوفي، بحيث قدرت عدد الممارسات الطبية بمجموع 11 نوع، فلقد تصدر أسلوب المسح المرتبة الأولى بمجموع 9 حالات معالجة أي بما يعادل نسبة 34.61%، وتجدر الإشارة إلى أن كل من آلية الكتابة وإعطاء البسباس من بين الأساليب المستعملة في إبراء المرضى، والتي تطرق لها المصنف المنقبي، غير أنها تبقى مجرد لتبيان أنها كانت تستعمل في مداواة دون تقديم حالات تمت معالجتها بهذا النوع من الأساليب بل يكتفي المصنف فقط بذكر عبارة - أنه ينفع كل داء- فعلى سبيل المثال اختص كل من أبو ابراهيم اسماعيل ابن وجماتن الجراجي (ت 595هـ/1198م) و أبو عبدالله يلا سيف ابن يغدون الجراجي، بإعطاء البسباس لكل شخص يشتكي من وجع¹، أما فيما يتعلق بالكتابة فقد أشار ابن الزيات² بأنها كانت تستعمل في تطبيب مرض الصرع، وهذا مايتضح من خلال قوله: " يكتب مكتوبه لمصروع إلا برئ"، المقصود هنا هو - أبو علي عمر بن علي ابن عبد العزيز الهزرجي-، بخلاف ذلك ذكر ابن الزيات³ أثناء تناوله لأخبار أبي العباس السبتي حالة واحدة تمكن فيها هذا الأخير من شفاء ابن مساعد من مرض التشنج.

1 - ابن الزيات، المصدر السابق، ص 353-357.

2 - المصدر نفسه، ص 304.

3 - المصدر السابق، ص 476.

كما يتضح لنا من خلال الجدول والتمثيل البياني أن هذه الأساليب يمكن أن نقسمها إلى صنفين، الصنف الأول: يتمحور حول أساليب العلاج الكرامي قبل الموت، والذي يضم كل من (المسح، المسح المشفوع بالدعاء، المسح المشفوع بالبصق، البصق، الدعاء، الاكتحال، إسباغ الوضوء، البسباس، الكتابة، إعطاء النقود)، هذا الصنف من الممارسة يكون عبر طريقتين مباشرة وغير مباشرة، فالمباشرة تتطلب حضور المريض عند الولي بحيث تتم عملية التطيب عن طريق المسح الذي كانت وظيفته مقترنة بشفاء الأمراض المادية¹، وقد سجلنا فيه تسع حالات كانت عن طريق وضع اليد والمسح على موضع الداء، وبالتالي أثبت هذا الأسلوب نجاعته وفعالته في تسكين الألم وإبراء العلل، ولا تعوزنا من القرائن ما يثبت هذا الطرح، ومن ذلك أن الولي أبو بعزي قد قدرت عدد الحالات المرضية التي عالجها بواسطة المسح بيده بمجموع 4 حالات، ومثال ذلك أنه قد مسح بيديه على عيني أبو مدين شعيب فأبصر²، يضاف إلى ذلك تلك الصبية التي أتته لتستشفى من علة أصابها فأدخل يده إلى جسدها ليمسح عليها³.

فلا شك أن قضية تطيب أبي يعزى لشريحة النساء قد خلقت جدلا واسعا بين فقهاء فاس في المغرب الأقصى وهذا مانستشفه من خلال قول ابن الزيات: "إن فقهاء فاس أنكروا لمس صدور النساء والنظر إليهن، فقال: أليس يجوز عندهم أن يلمس الطبيب تلك المواضع ويرأها للضرورة؟ فهلا عدوني واحدا من أطبائهم؟ وأنا إنما ألمس ذوات العاهات للتداوي بذلك"⁴، لكن هذا لا يمنع أن نجد أولياء آخرين قد اضطلعوا بممارسة هذا الأسلوب في مداواة المرضى، على غرار أبو لقمان يرزجان ابن يعقوب الأسود (ت570هـ/1174م) الذي عالج داء الصرع بالمسح على الرأس فما أصاب صاحبه بعدها⁵.

كما طرح المصنف المنقبي نوعين آخرين من المسح⁶، والذي إما يكون مشفوعا بالبصق أو مشفوعا بالدعاء، فالنوع الأول ينسب إلى أبو تميم عبدالواحد الأسود الذي مسح بريقه على موضع البرص الذي أصيبت به أخت علي بن عبدالكريم، فلم يبقى للبرص أثر في وجهها⁷، في حين اختص بالنوع الآخر الولي أبو محمد عبدالله ابن حريز ابن

¹ - نللي سلامة العامري، الولاية والمجتمع مساهمة في التاريخ الديني والاجتماعي لافريقية في العهد الحفصي، ط1، منشورات كلية الآداب، تونس، 2001م، ص 340.

- ابن الزيات، المصدر السابق، ص 320، 321.

- المصدر نفسه، ص 220.

- ابن الزيات، المصدر السابق، ص 215.

- ابن الزيات، المصدر السابق، ص 233.

⁶ - العامري، المرجع السابق، ص 341-343.

- ابن الزيات، المصدر السابق، ص 269.

تاخيسيت(ت608هـ) الذي استعمله في شفاء أبي عبدالله محمد بن علي الأنصاري السقطي الذي قال: "مرضت، فدخل علي أبو محمد ابن تاخيسيت يعودني، فمسح بيديه علي ثلاث مرات، وهو يقول: سألت رب العرش العظيم أن يشفيك، فما أكملها حتى برئت من مرضي"¹.

كما وقفنا على أسلوب آخر يندرج ضمن الطقوس الاستشفائية في إبراء المرضى ألا وهو البصق أو التفل، هذا الأخير يعتبر من بين الوسائل المحبذة لدى الأولياء في تطيب العاهات المستعصية وقبلهم الشيوخ والأجداد²، فقد بصقت فلانة الأندلسية في عيني أبو محمد عبدالله ابن عبد الملك البياني فعاد له بصره³، فالريق تظهر بركته المقدسة وقيمتها الاجتماعية إبان أزمة المرض⁴، وهذه هي الإشارة الوحيدة التي وقفنا عليها في كتاب التشوف فيما يتعلق بمداواة المرأة الصوفية للمرضى في المغرب الأقصى.

فضلا عن الطقوس الاستشفائية الأخرى التي اتبعتها الأولياء في تسكين الألم، والتي أثبتت فعاليتها في ذلك هناك نوع آخر من الطقوس ألا وهو الدعاء من أكثر الطقوس التي ارتبطت بظاهرة الولاية، فقد كان هذا الأخير من أهم الطقوس المستعملة على اعتبار أن دعوة الأولياء كانت مستجابة من الله لتقواهم وورعهم⁵، وفي هذا الصدد دعى أبو زيد عبدالرحمن ابن هبة الله المزياقي لصبية مريضة حملوها له - مرض مجهول - فشفيت⁶، فبخلاف ذلك نجد حالات لم تكن تقتضي قدوم المريض إلى الولي مثلما حدث مع موسى بن سدرواح الجرجاجي الذي طلب من أبا ابراهيم أن يزرقه الله ثلاثة أولاد ذلك أن زوجته كان لا يعيش لها أولاد فكان له ما طلب⁷، كما ينطبق نفس الحال مع أبو علي ابن عبدالله البردي الأسود(ت586هـ/1190م) الذي أصيب بمرض العمى فأرسل له أبو يعزى قطعة من برنوسه فأمره أن يحرقها ويكتحل برمادها فشفي بعدها⁸.

1 - المصدر نفسه، ص 391.

2 - محمد حقي، الموقف من المرض في المغرب والأندلس في العصر الوسيط، مطبعة مانبال، بني ملال، 2007م، ص 72.

3 - ابن الزيات، المصدر السابق، ص 237.

4 - عبدالهادي البياض، تجليات المقاربة الوسطية في منهج التكافل الاجتماعي لمتصوفة المغرب في العصر الوسيط، مقال ضمن كتاب التصوف السني في تاريخ المغرب نموذج للوسطية والاعتدال، منشورات الزمن، المغرب، 2010، ص 231.

5 - مزدور، المرجع السابق، ص 168.

6 - ابن الزيات، المصدر السابق، ص 400.

7 - ابن الزيات، المصدر السابق، ص 357.

8 - المصدر نفسه، ص 283.

أما فيما يتعلق بالصنف الثاني من الممارسات العلاجية هو الذي كان يحدث بعد موت الولي، بما يسمى بالتبرك الاستشفائي، هذا النوع من الطقوس كان يحدث لاعتقاد الساكنة بأن كرامات الأولياء لا تنقطع بمجرد وفاتهم بل تظهر حتى بعد وفاتهم¹، ولعل هذا ما أكدته السنوسي² في قوله: "إن الولي المقدر عند الله تعالى لا تظهر له كرامة في حياته وإنما تظهر له بعد مماته"، فمن خلال قراءتنا لكتاب التشوف قدرنا عدد الحالات التي شكل فيها تراب القبور أحد الطقوس الاستشفائية من الأمراض بمجموع ثلاث حالات أي بما يعادل 11.53%، والملاحظ على أن ابن الزيات اكتفى بذكر عبارة - يستشفى الناس بتراب قبره - دون تحديد أن تراب هذه القبور قد اختص بمداواة مرض ما، وهذا ما يتضح من خلال قوله: "وقبره بنظيره يستشفى الناس بترابه"³ المقصود - أبو محمد مع الله ابن يحيى بن يجاتن الزياتي (ت536هـ/1141م).

خاتمة:

عند الحد من هذه الدراسة يمكن القول أنه من خلال التطرق لموضوع الممارسة الطبية الصوفية في المغرب الأقصى من خلال كتاب التشوف لابن الزيات، تم التوصل إلى جملة من النقاط:

* لقد هناك جملة من العوامل والأسباب ساهمت في خلق المجال الخصب لظهور الطب الصوفي الذي استجاب للأصوات التي استغاثت به لا سيما الفئات الضعيفة.

* يمكن القول أن الأولياء قد تمكنوا من شفاء بعض الأمراض وليس كلها، والتي عجز الأطباء عن تطبيقها مثل داء البرص، غير أنه لفت انتبهنا خلو المصنف المنقبي من معالجة الأولياء لداء الوباء لا سيما وأن بلاد المغرب الأقصى عرفت وباءين عظيمين الأول كان سنة 571هـ والثاني في سنة في 635هـ/1237م.

* اتبع الأولياء في تسكين الألم مجموعة من الطقوس الاستشفائية، والتي أثبت نجاعتها وفعاليتها في شفاء الأمراض وإبراء العلل، هذا الأمر أدى بالساكنة إلى الاعتقاد المطلق والتشبث بكرامات الأولياء وقدرتهم الشفائية.

الملحق 01

اسم الولي	الشخص	نوع المرض	نوعية العلاج	ص
-----------	-------	-----------	--------------	---

1 - أحمد بن حسن ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقر وعز الحقيير، تح: محمد الفاسي وأودلف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965، ص 7.

2 - المواهب القدسية في المناقب السنوسية، تح: عادل بوريقي، دار كردادة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2001م، ص 115.

3 - ابن الزيات، المصدر السابق، ص 132.

			المصاب	
84	الاستشفاء بتراب قبره	/	/	أبو عبدالله بن محمد بن سعدون ابن علي بن بلال القيرواني (ت 485هـ/1092م)
13 2	الاستشفاء بتراب قبره	/	/	أبو محمد مع الله ابن يحيى بن يجاتن الزناتي (ت 536هـ/1141م)
14 1	الاستشفاء بتراب قبره	/	/	أبو حفص عمر بن ميكسوط الدغوشي (ت 546هـ/1151م)
21 5	المسح	* الانقطاع عن الكلام	* مؤذن الشيخ	أبو يعزى يلنور بن ميمون (ت 572هـ/1176م)
21 7	المسح	* وجع في العينين	* جارية	
22 0	المسح	* مرض مجهول	* صبية	
32 1	المسح	* عمى	* أبو مدين شعيب ابن حسين الأنصاري	
23 2	التقل	مرض مجهول	رجل	أبو علي يعزى ابن الشيخ أبي يعزى بلنور بن ميمون
23 3	* المسح	* الصرع	ولد	أبو لقمان يرزجان ابن يعقوب الأسود (ت 570هـ/1174م)

23 3	* المسح	* الصرع	- عبدالله بن عيسى	
23 7	البصق	العمى	أبو محمد عبدالله ابن عبدالمملك البياني	فلانة الأندلسية
26 9	المسح المشفوع بالبصق	البرص	أخت علي بن عبدالكريم	أبو تميم عبدالواحد الأسود
28 3 28 3	* إسباغ الوضوء * الاكتحال	* وجع في الرجلين * عمى	أبو علي ابن عبد الله البردي الأسود	أبو علي ابن عبد الله البردي الأسود (ت 586هـ / 1190م)
29 2	المسح	عدم القدرة على تحريك اليد	يلول بن يحيى	أبو مهدي ابن علي الهسكوري
30 4	الكتابة	/	/	أبو علي عمر بن علي بن عبدالعزيز الهزرجي (ت 592هـ / 1195م)
30 9	المسح	وجع	رجل	أبو حفص عمر بن أبي يعقوب تصولي بن وايسكوط (ت 595هـ / 1198م)

35 2	* المسح * البسباس	* العلل السبع * مرض مجهول	أبا محمد عبدالله بن عثمان	أبو ابراهيم اسماعيل ابن وجماتن الرجرجي (ت 595هـ/1198م)
35 3				
35 7 35 7	* البسباس * الدعاء	* وجع * موت الأولاد	/ * موسى بن سدرماح	أبو عبدالله يلا سيف ابن يغديون الرجرجي
39 1	المسح المشفوع بالدعاء.	مرض مجهول	أبي عبدالله محمد بن علي الأنصاري	أبو محمد عبدالله ابن حريز ابن تاخميست (ت608هـ/1211م)
40 0	الدعاء	مرض مجهول	صبية	أبو زيد عبدالرحمن ابن هبة الله المزياقي (ت 607هـ/1210م)
41 4	التفل	العلل	/	أبو زكرياء يحيى ابن ميمون الصنهاجي الأسود (ت 601هـ/1204م)
47 5 47 6	* إعطاء النقود * الكتابة	* وجع الرأس * تشنج	* ابراهيم ابن نجا * ابن مساعد	أبي العباس السبتي

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر

- التادلي أبو يعقوب بوسف بن يحيى (ت 617هـ/1220م)، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تح: أحمد التوفيق، ط2، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، 1997م.
- ابن زهر أبو مروان بن عبدالمملك (ت 557هـ/1162م)، التيسير في مداواة والتدبير، تح: محمد بن عبدالله الروداني، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، مطبعة فضالة، المحمدية، (د.ط)، 1991م.
- الغبريني أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبدالله (ت 714هـ/1314م)، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة ببجاية، تح: عادل نويهض، ط2، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1979م.
- ابن قنفذ أحمد بن حسن القسنطيني، أنس الفقر وعز الحقير، تح: محمد الفاسي وأودلف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965م.
- الملاي أبو عبدالله بن عمر (ت 897هـ/1429م)، المواهب القدسية في المناقب السنوسية، تح: عادل بوربيق، دار كردادة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2001م.

المراجع:

- البياض عبدالهادي، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب و الأندلس (ق6-8هـ/12-14م)، ط1، دار الطليعة، بيروت، 2008م.
- بونابي الطاهر، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7 هجريين/12 و13 الميلاديين (نشأته- تيارته- دوره الاجتماعي والثقافي والفكري والسياسي)، دار الهدى، عين مليلة، 2004م.
- حقي محمد، الموقف من المرض في المغرب والأندلس في العصر الوسيط، مطبعة مانبال، بني ملال، 2007م.
- زرهوني نور الدين، الطب والخدمات الطبية في الأندلس خلال القرن السادس الهجري- الثاني عشر ميلادي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د.ط)، 2006م.
- الشاذلي عبداللطيف، التصوف والمجتمع نماذج من القرن العاشر هجري، ط1، مطبعة سلا، سلا، 1989م.
- العامري نللي سلامة، الولاية والمجتمع مساهمة في التاريخ الديني والاجتماعي لافريقية في العهد الحفصي، ط1، منشورات كلية الآداب، تونس، 2001م.

المذكرات:

غانية البشير، والمجتمع بالمغرب الإسلامي في عصري المرابطين والموحدين (479-635هـ / 1086-1238م)، أطروحة دكتوراه، جامعة أبو القاسم سعدالله، الجزائر2، 2015-2016م.

المقالات:

- البياض عبدالهادي ، تجليات المقاربة الوسطية في منهج التكافل الاجتماعي لمتصوفة المغرب في العصر الوسيط، مقال ضمن كتاب التصوف السني في تاريخ المغرب نموذج للوسطية والاعتدال، منشورات الزمن، المغرب، 2010م.
- بوتشيش إبراهيم القادري ، العلاج الطبيعي والروحاني بالمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين (منتصف القرن الخامس هـ -منتصف القرن السادس هـ)، مقال منشور ضمن أعمال مؤتمر الطب والصيدلة عند العرب، إصدار مركز التراث القومي والمخطوطات، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1998م.
- مزدور سمية، الأزمة والولاية الصوفية في المغرب الأوسط (ما بين القرنين 6-10هـ/12-16م)، مقال منشور ضمن كتاب جماعي مغرب أوسطيات دراسات في تاريخ وحضارة الجزائر في العصر الإسلامي في العصر الوسيط، إشراف: علاوة عمارة، ط1، منشورات مكتبة اقرأ، الجزائر، 2013م.